المتوكل طه:
"الأبواب المنسية"

ناقشت الندوة كتاب "الأبواب المنسية" للشاعر والأديب المتوكل طه، وقد صدر الكتاب عن منشورات وزارة شؤون الأسرى والمحررين الفلسطينية في رام الله، ووقع الكتاب، الذي احتوى على عشرات اللوحات التشكيلية للفنانة ريما الزين، في 220 صفحة من الحجم المتوسط، وقدم له الشاعر عيسى قراقع وزير شؤون الأسرى والمحررين.

نزهة أبو غوش:

أَدب السجون، أَو أَدب المعتقل يعتبر أَدبًا حديثًا بنوعه الأَدبي، حيث أَخذ يشكل شيئًا فشيئًا ملامح فنية مميزة على مستوى الشكل والمضمون.

لقد ظهر هذا النوع من الأَدب في عالمنا العربي وفي المجتمعات الأُخرى، حيث يعبر الأَديب عن نوع الحياة خلف القضبان، وقد وضع خليل بيدس أَول كتاب فلسطيني أَثناء اعتقاله زمن فترة الانتداب البريطاني. ومن الأُدباء الذين كتبوا في هذا المجال: دستويفسكي الروسي في روايته "منزل الأَموات"، وعبد الرحمن منيف في "شرق المتوسط"، والشاعر أَحمد فؤاد نجم في ديوان "الفاجومي"، وفاضل الغزاوي في رواية "القلعة الخامسة"، وعزت الغزاوي في مجموعة قصص "سجينة" وسيرة عائشة عودة في "أَحلام بالحرية". ومن الشعراء: محمود درويش، ومعين بسيسو، والشاعر التركي ناظم حكمت، وهناك أَعداد كثيرة من الأُدباء لا مجال لذكرهم الآن.

"الأَبواب المنسية" للأَديب المتوكل طه، هي مجموعة قصصية صوَّر فيها الأَديب حياة ما وراء القضبان- الجدران- إِضافة إِلى مجموعته الشعرية "رغوة السؤال" (1992)، و"فضاء الأُغنيات" (1989).

من خلال تعرفنا إلى شخصية الأَديب، فقد سبق وأن اعتقل وعانى داخل السجون الإسرائيلية، فجاءت كتاباته صادقة، بل من أَبدع وأَروع الكتابات، لأَنها وليدة تجربة حيَّة عاشها بكل تفاصيلها، فجاء الأَلم والمعاناة منطلقًا للإِبداع، وشكلت قسوة الاحتلال، وممارساته الجسدية والنفسية ضد السجين الفلسطيني طاقات لا حدود لها من الإبداع.

جاءت كتابات المتوكل طه معبرة عن حالات إنسانية، وأَبعاد فكرية ونضالية، نتج عنها أَدبٌ وطني مقاوم يرفض واقع القيد والاحتلال، ويمجد النضال، والصمود.

في قصص "الأَبواب المنسية" توازنت قيمة الأَحداث مع قيمة الشخصيات، وتعددت الأَصوات المظلومة، والمقموعة، وجاء الزمان بدون عقارب الساعة، بل هو زمان مفتوح يختلط فيه الليل بالنهار، والدقيقة بالثانية، والسنة بالشهر. أَمَّا المكان فهو خلف القضبان في الزنازين- الإكس- المغلقة بجدران عالية مسوَّرة بالأَشواك. وهذا المكان هو سجن صغير داخل سجن الوطن الكبير.

وصف الكاتب حالة سحق الكرامة للإنسان السجين، وعبَّر عن مدى الإهانات، وقسوة التعذيب النفسي، والجسدي، والحالة الشعورية التي يمر بها الأَسير بعيدًا عن أَهله. "وعندما سأَلناه عن الديمقراطية والحرية والكرامة الإنسانية وحقوق الطفل المنتهكة في بلادنا، صغُر حجمه، وتقلص إلى درجة أَنه فتح باب الفانوس، ودلف إِليه، وأَغلق عليه الباب." (ص162).

صوَّر المتوكل طه الأَحلام البعيدة التي تراود الأَسير في نومه "ومن هذه التي تتهادى على فرس الغيم طريق الغاب؟ ومن هذا الذي يمسك ذراع العروس ويخطو معها على ماء؟ ولمن هذه الزفة الصاخبة؟ أَيقظوه

إنه يحلم كعادته". لقد صوَّر الكاتب صورًا كثيرة لثبات الأَسير وقوة إرادته وتحديه لسجانه، كما حدث في قصة "تصميم" للسجين الذي كان يصنع المجسمات للأَقصى، ولم ييأَس من صنع غيره وغيره بعد كل مرة كان بها السجان يدمر ذلك المجسم، فكان هذا يستفز السجانين ويقهرهم، ولم ينس الكاتب تصوير سادية السجَّان ومحاولته خلق الفتن بين السجناء، وحتى بين الأَقارب، وصورة أخرى لسادية السجَّان وهو محاولته لقتل الأَمل في نفوس السجناء حتى ولو كان ضئيلاً نحو الشّمامة التي دعكها بقدمه، حين عرف بأَنها تشكل للسجناء أَملاً، وكذلك اقتلاع الوشم عن ذراع السجين، لأَنه باسم (فلسطين).

الطفل السجين في كتابات طه كان مؤلمًا ومؤثرًا للطفلة التي أُخذت من أَحضان والدتها ورفيقاتها المسجونات، ووضعت بيد الأَجداد حزينة. كذلك قصة الفتى الذي نما جسديًّا داخل السجن، لكنه ظلَّ صغيرًا من الناحية النفسية، وغيرها وغيرها من القصص المروعة.

لقد صوَّر الكاتب حالة السجان حين يقتله الرعب من الأَوهام تجاه الإنسان الفلسطيني، حتى أَنه اقتلع الشجرة، ودمَّر الجدار المرسومة عليه الخيول. لقد شكَّل الأَسير الفلسطيني عبأً ثقيلاً على سجَّانه:" وراح يضربني ويصرخ، ويضربني، ويجأَر كالوحش المجروح، ويزبد، ولم أَفهم منه شيئًا سوى: من الذي جاء بكم إِلى هنا؟ من الذي جاء بكم؟". لقد

كانت واضحة صورة صداقة وتآلف الأَسرى مع بعضهم البعض، حتى شعور الصغير بأبوة الكبير. ولم ينس الكاتب دور المرأة كمناضلة ومشاركة للرجل، وهي المرأة المخلصة الصابرة لبقاء زوجها سنوات طويلة في المعتقل.

رغم كل الصور القاتمة المظلمة، أَظهر المتوكل طه بعضًا من الأَمل الذي يجب أَن يتمسك به الفلسطيني الأَسير تطلعًا إِلى الحرِّية: "ولكن أَبوابها غليظة القضبان ومجدولة السلاسل، وانتبهنا أَن الشمس تطفح بأَشعتها العمودية في كبد السماء، وما كان علينا إِلا أَن نتمسك بجدائلها الذهبية ونصعد" (ص35).

سمير الجندي:

يطل علينا الشاعر والكاتب المبدع المتوكل طه من شرفة عالية من شرفات الأدب، بعد أن أثرى المكتبة العربية بأشعاره الملتزمة التي تعبر عن نبض الشعب العربي الفلسطيني، وها هو اليوم يتحفنا بهذا الأسلوب الرقيق الذي لا يخلو من جمال ورقة وعذوبة، ينقل لنا من خلال نصوصه التي انتزعها من نفس تواقة للحرية والكرامة والعزة.

"الأبواب المنسية".. مجموعة قصصية سطرها الكاتب ليعبر من خلالها عن قسوة السجن والسجَّان، رسم فيها مشاعر وأحاسيس الأسير

الفلسطيني الـذي انتزعـت منـه حريتـه وبقيـت إرادتـه الـصلبة، وعزيمتـه الحديدية سلاحًا يشهره بوجه الظلم والطغيان، لتنتصر المشاعر الـصادقة على فولاذ الزنازين، ولتشرق شمس الحرية على ظلمة القمـع والإرهـاب الصهيوني.

"الأبواب المنسية".. اختار الكاتب الاسم الذي جاء مناسبًا لمحتـوى المجموعة القصصية، فهل أراد الكاتـب أن يقـول إن المعتقـل الفلـسطيني متروك في تلك الزنازين دون عناية غير العناية الإلهية؟ أم يريـد القـول إن الأسير الفلسطيني هو مجرد رقم عـلى أجنـدة الـسياسيين؟ أم إنـه ميـت لا حول ولا قوة له، وما السجن إلا قبر يختلف بشكله عن القبور المعروفـة؟ أم جميع ما ذكر؟ المتوكل طه يجيـب عـن الأسـئلة مـن خـلال تحطـيم تلـك الأبواب المنسية بقلمه الشفاف، فينقلنا إلى عالم الأسير بكل ما يحيط به من ظلم وعزة، وقهر وإرادة، وانتهاك وكرامة.

لقد استطاع الكاتب من خلال نصوصه أن يصور حالة الأسرى بدقـة متناهية، وبأسلوب سهل ممتنع. لقد قرأنا العديد من المؤلفات عن الحركة الأسيرة، لكنها لم تكن بهذه اللياقة وهذا العمق، فقد كان أسلوبه قريبًا إلى النفس، بعيدًا عن الإطالة والإسهاب، عميقًا في الفكرة، جميلاً بالـصورة، تراه يسخر مـن جـبروت الـسجّان تـارة، وتـارة أخـرى يخرّ سـاجدًا أمـام

عظمة الأسير، أما الإطار اللغوي الذي احتوى تلك الصور والأفكار، فقد كان متناسقًا وملائمًا للمعنى.

ومن الجدير ذكره تلك اللوحات الفنية التي رافقت النصوص، هي بالتأكيد رائعة لولا فقدانها كثيرًا من قيمتها أمام اللونين الأسود والأبيض، تلك اللوحات لن تعبر عن صورة وغاية الفنانة، لأنها فقدت بريق ألوانها، فاللون هو الذي ينقل لنا محتوى الفكرة، فيا حبذا لو كانت اللوحات بألوانها المائية الأصلية، لكان اكتمل العمل، وانتصرت الفكرة.

لقد أطل علينا المتوكل من وراء الأبواب المنسية، فأصبحت بقلمه مفتوحة على مصراعيها، وحمل كل نص من النصوص الثلاث والستين قصة تحتاج إلى مئات الصفحات، فاختزلها الكاتب بتلك اللغة المكثفة، بجمل قليلة نقلت لنا مضمونًا بسعة فلسطين.

فقد نقل لنا حرقة الأمّ على ابنها، والذكريات التي يحملها الأسير، وشفافية الإنسان القابع خلف الأبواب المنسية، ورسم لون البحر وقمرًا يأتي زائرًا أول كل شهر، كما نقل ظلم المظلوم لنفسه، وكم كان هذا الأسير قويًّا مرعبًا أمام سجانيه الجبناء، فهم يخافون من الساحر ومن الرسَّام، فيرشقون اللوحة بوابل من رصاصهم: "لقد باغتتنا الخيول المرسومة على الجدار، فخرجت منه، وجمحت وصهلت، وكادت توقعنا تحت حوافرها، فرميناها بالنار" (ص30). ووصف لنا ببراعة متناهية

أثر الزيارة على نفس السير؛ ثلاثون دقيقة تمر كلمح البصر يظن فيها الأسير قد ارتقى إلى السماء للقاء الأولياء والأنبياء، وكاد أن يصور المحقق بأنه إنسان عادي يفرح ويحزن، ولكنه تدارك الأمر عندما نزع عنه إنسانيته في اللحظة الأخيرة. "وسألني وهو يفك الكلبشة من وراء ظهري: ما اسم ابنتك؟ وقبل أن أجيب دفعني بقوة إلى داخل الإكس، وأغلق الباب بركلة من قدمه!" (ص25). وعندما سحق السجَّان الشامة ببسطاره، وعندما كان مشبوحًا وفك المحقق قيوده، إلا إنه يعود بهراوة غليظة لينهال عليه بالضرب: "وأنزل ذراعي، وتركني، ومضى، وبعد دقائق عاد ومعه هراوة غليظة، وهجم عليَّ كالمجنون، وراح يضربني ويصرخ ويضربني ويجأر، كالوحش المجروح" (ص42). لكن الكاتب يتحول إلى طبيب نفسي، أو عندما يضيف تساؤلاً على لسان المحقق الذي يصرخ قائلاً: "من الذي جاء بكم إلى هنا؟ ما الذي جاء بكم...؟" (ص42)، فهو يتساءل سؤالاً يصحبه تمنٍ مبطن من قبل السجَّان، وكأنه يريد القول إن وجودكم هنا في المعتقل قد جرّدنا من إنسانيتنا، أي إنه يحيل السبب على الضحية، وليس على الجلاد، متناسيًا أن سبب وجود المعتقلات أصلاً هو الاحتلال نفسه.

يكرر الكاتب موقفه من الآخر عندما يصف السجَّان من أصل عراقي، فهو- أي السجَّان- يحن إلى الماضي كإنسان، لكنه- أي الكاتب-

يعيده إلى طبيعته التي اكتسبها من خلال فلسفة الاحتلال والقمع، فيجرده من صفات الإنسان بقوله: "هل جئت لتصبح خادمًا للأشكناز الذين لا يعرفون ناظم الغزالي؟ يجن جنونه ويأمرنا بعصاه أن نعود إلى الزنازين، وهو يسبّ ويشتم ويكفر" (ص60)، فهو هنا ينشئ حوارًا بين الخير والشر داخل النفس البشرية، من خلال ولُوجه إلى فلسفة الذات، وكيف يكون الإنسان محاصرًا بماضيه، عندما يكون أسيرًا لحاضره مهما كانت قسوة الحاضر، ومهما كانت سعادة الماضي.

تتوالى الصور التي تعبر عن واقع المعتقل المعيشي والنفسي والفلسفي، فهذا المعتقل الذي يجبره الواقع على التكيف مع الظروف القاهرة للإنسان، فإنه لا يتخلى مهما اشتدت المعاناة عن أمله بالحرية، إذ يقول: "وانتبهنا أن الشمس تطفح بأشعتها العمودية في كبد السماء، وما كان علينا إلا أن نتمسك بجدائلها الذهبية، ونصعد." (ص36).

وقد تألق الكاتب إلى أبعد الحدود في قصة "طفل" الذي رسم فيه حالة المعتقل النفسية بدقة متناهي، فقد اعتقل طفلاً في الرابعة عشرة من عمره، وتعلم وحصَّل أعلى الدرجات العلمية، وعمل موظفًا رفيعًا، إلا إنه لم يزل يتصرف ضمن إطار طفولته التي حُرم منها خلف الأبواب المنسية: "سمعتها تقول لي إنه ما زال في الرابعة عشرة من عمره" (ص82).

ولا يفوت الكاتب أن يظهر ثقافة الأسير الفلسطيني، عندما يحاور مدير السجن حول لوحة للرسام اليهودي (مارك شاجال)، بحيث كانت معلومات الأسير أكثر بكثير من معلومات مدير السجن عن حياة هذا الرسام.

لم يغب عن المتوكل طه، ذكر الشهداء الأسرى، عندما عرج على ذكرهم، وتأثيرهم على سجّانيهم، مما يسمون أنفسهم بالعلماء، فالشهيد لا يموت، ولا يتحلل جسده، لينتصر على جلاديه الموتى، كما انتصر عليهم الأسير في عقر سجنهم. وقد وظف الكاتب سيرة الشهداء توظيفًا موفقًا خدم نصه، وارتقى بمستواه الفنيّ عندما قال: "في اليوم الثاني كان المشرف قد أعدَّ العدة لافتعال حريق هائل، يأتي على مخزن الموتى، وعلى الثلاجات والموجودات فيها، ومع تصاعد الدخان الكثيف كانت الأجساد تتعالى، وسط العجاجة السوداء، بملابسها البيضاء إلى البعيد (ص142).

لقد خلصت إلى نتيجة بعد قراءة هذه المجموعة القصصية للكاتب الشاعر المتوكل طه مفادها:

أولاً: إن الكاتب قد رصد لنا تجربته الاعتقالية بأسلوب فني رفيع، اتسم بالسهل الممتنع.

ثانيًا: إن الكاتب لم يترك شاردة ولا واردة إلا وذكرها تقريبًا حول ظروف الأسير الفلسطيني.

ثالثًا: اتسمت بعض النصوص بالتحليل النفسي.

رابعًا: يتمتع الكاتب بثقافة عالية مصدرها المكتبة الغربية والعربية، ولديه مساحات واسعة من الثقافة الفنية (الرسم والموسيقى).

خامسًا: تراوحت آراء الكاتب حول موقفه من الآخر.

جميل السلحوت:

عنوان الكتاب

يحمل الكتاب عنوان "الأبواب المنسية"، وهو عنوان شاعري لافت على الرغم من واقعيته، فمن لا يعرف هوية المؤلف والمكان الذي يعيش فيه، قد يظن العنوان رومانسيًّا يحمل في ثناياه رواية حب، وهو كذلك، لكنه حب من نوع آخر، حب بعيد عن العشق والغرام، إنه حب الحرية المسلوبة، وحب من غُيّبوا وراء القضبان مسلوبي الحرية الشخصية بحثًا عن حرية وطنهم وشعبهم، ولذلك فإن الكاتب أهدى مؤلفه لهم، والعنوان لم يأت عبثًا أو عفو الخاطر، بل انعكاس لواقع مؤلم، فهناك أكثر من سبعة آلاف أسير فلسطيني وعربي في سجون الاحتلال الإسرائيلي، منهم من مرّ عليه أكثر من ثلاثين عامًا خلف القضبان، والمئات منهم مرّ

عليهم أكثر من عشرين عامًا، ومـن بـين الأسرى نـساء وأطفـال وشـيوخ ومرضى، ومنهم من قضى نحبه في الأسر، فخـرج مـن قـبر الحيـاة محمـولاً على الأكتاف لقبر المات، لكن روحه تحلق عاليًا في سماء المجد والخلـود، ومع ذلك فان أحدًا لم يعمل ما فيه الكفاية لإطلاق أسرى الحرية، أو أنهم يكـادون أن يكونـوا منـسيين مـن أبنـاء أمّـتهم، ومـن المتـشدقين بحقـوق الإنسان، وكأن الحرية ليست حقًّا يتساوى فيـه البـشر جميعهم، ومـن هنـا جاء عنوان الكتاب.

المضمون

تحدثت الكتابـات الـسابقة عـن الأسرى والـسجون.. عـن عمليـات التحقيـق الوحـشي، والتعـذيب والمعاملـة الـلا إنـسانية التـي يتعـرض لهـا الأسـير، وتحـدثت عــن المعانــاة والمكابـدة، وتـأتي نـصوص"الأبــواب المنسية"- والتـي يبلـغ عـددها ثلاثـة وسـتين نـصًّا- لتتحـدث عـن نـماذج إنسانية حُرمـت مـن ممارسـة إنـسانيتها، تعـاني وتحلـم وتمـارس"الحيـاة مـا استطاعت إليها سبيلاً".

الضدية

والجميل- على الـرغم مـن مـرارة المـضمون- في هـذه النـصوص هـو الـضدية التـي فيهـا، ظـالم ومظلـوم، سـجين وسـجان، قـامع ومقمـوع، الإنسانية والوحشية، الحب والكراهية، الجمال والقبح، القوة والـضعف،

الإرادة والتخاذل، الشجاعة والجبن، النزق والصبر، اليأس والبأس، الأمانة والخيانة، الصدق والكذب، النصر والهزيمة، الصحة والمرض، التفاؤل والتشاؤم، الرذيلة والفضيلة، الصمود والانهيار، الضحية والجلاد...الخ.

اللغة والأسلوب

لجأ الكاتب إلى أسلوب القص الشاعري، وبعض النصوص لا تتوافر فيه الشروط الفنية للقص، وهي أقرب إلى لوحة فنية تجملت باللغة الشاعرية، لتكون خاطرة أو مقالة تحمل قصة أو حكاية أسيرة أو أسير مطهمّة بالإنسانية، وجاء السرد بعيدًا عن المباشرة والشعارات الرنانة، ليتغلغل بنعومة إلى عقلية المتلقي، الذي لا يعود أمامه خيار سوى التعاطف مع هؤلاء الضحايا. والمؤلف الذي يملك ثروة لغوية لافتة، استغلها جيدًا للتعبير عما يجول في خاطره عن أسرى وأسيرات عايشهم، وعرفهم عن قرب، ولا غرابة في ذلك فهو نفسه كابد معاناة الاعتقال والتحقيق والأسر، فانعكست تجربته في نصوصه دون أن يفصح عن ذلك مباشرة. ولم يلجأ المؤلف إلى المبالغة في بناء شخصيات نصوصه، فهم ليسوا أبطال أساطير أو خرافات، بل هم بشر من لحم ودم، يعيشون بيننا، فمثلاً المرأة التي أنجبت طفلتها في الأسر حقيقة لا خيال، وتحرير طفلتها من الأسر، وإبعادها عن والدتها حدثت فعلاً، لتعيش الطفلة مع

جديها بعيدة عن والدتها، وعن والدها الأسير الذي لم يرها ولم تره، ولا تتأقلم الطفلة البريئة مع حياة الحرية لأنها غريبة عليها.

وماذا بعد؟

مهما كُتب عن هذه النصوص، التي تشكل صرخة لتبني قضية الأسرى، والعمل على إطلاق سراحهم، إلا أن ذلك لا يغني عن قراءتها.

رفيقة عثمان:

تعتبر الأقاصيص المكتوبة، بقلم الأديب المتوكل طه، عبارة عن لوحات فنيَّة مُتقنة، بريشة فنَّان مُحترف، يتقن دمج الألوان، وتناغم الخطوط، لدرجة بأنه بإمكانه الاستغناء عن الرسومات المُجرَّدة التي رُسِمت بجانب كل أُقصوصة، ولم تُضف هذه الرسومات للأقاصيص شيئًا.(مع اعتذاري للفنانة ريما المزين، التي رسمت هذه اللوحات).

تعتبر هذه القصص واقعيَّة جدًّا، مؤثِّرة، مُعبِّرة، لها وقع على نفس القارئ.

لقد كتب الكاتب كل أقصوصة، أو قصَّة خلف باب منسي، كفنان رسْم "كاريكاتوري"، توصل الرسالة إلى ذهن القارئ بسهولة تامَّة، بكافة تعبيراتها، وحركاتها، في رسمة "سكيتش" مع سماع إيقاع نغم حزين، يدغدغ المشاعر الإنسانيَّة، ويدقُّ ناقوس النسيان، في زمن نسي

معظم الناس فيه معني القيم الإنسانيَّة، وقيمة الذين ناضلوا من أجل الحريَّة، والعدالة، والكرامة، في وطن سجين.

لم يظل فِكر الكاتب سجينًا خلف الأبواب المَنسيَّة، بل أطلق العنان لها، واخترقت تلك الأبواب، لتذكِّرنا بهذا الداء الذي اسمه النسيان، وأنَّ هنالك أناسًا يقبعون في السجون، دفعوا حياتهم ثمنًا لتحقيق الحريَّة، والعدالة، والحياة في وطنٍ آمن.

كيف لا؟ ألا يستحقُّون كلهم أَن يُذكروا في أذهاننا، وأن تتم متابعة قضيتهم حتى إطلاق سراحهم؟ بعد أن أُغلِقت أبواب السجون عليهم، ونسيهم الأهل، والمسؤولون، وأبناء الوطن.. وهم يعانون الظلم، وقسوة السجَّان، ومدير السجن. ظلوا سجناء أنفسهم، وسجناء الوطن، وسجناء الأعداء معًا، ومع ذلك ظل الوطن في داخل نفوسهم، وأجسادهم، (كمعظم الأقاصيص)، مثالا على قصَّة "الوشم" (ص 51)، و"الوصيَّة" (ص191).

قصَّة "صهيل في العتمة" (ص29)، قصَّة تُخلخل عقل القارئ، وتُظهر مدى الاستهتار بالسجين، وتفكيره، ومدى الاستهتار في القُدرات العقليَّة، والفنيَّة، فدمَّر السجَّان اللوحة الفنيَّة عن الجدران، مُدَّعيًا صحوة الحصن، وهجومها، لذا قام السجَّان بقتلها.

استخدم الكاتب لغة عربيّة فصحى سهلة، خالية من اللغة العاميَّة، ومُعبِّرة، ذات بلاغة عالية.

أتمنى للكاتب مديد العمر، مع أبواب أخرى، من أبواب الوطن.

موسى أبو دويح:

قصص المتوكّل، تشكّل كلّ قصّة منها لوحة مستقلّة، ولهذا رسمت الفنّانة ريما المزيّن ثنتين وستين لوحة، تعبّر في كلّ لوحة منها عن قصّة من قصص الكتاب- وإن كان فنّ هذا الرّسم لا يعرفه كثير من النّاس، وأنا واحد منهم- وتشكّل كلّ قصّة منها موضوعًا مستقلاً عن مواضيع القصص الأخرى، إلا أنّها جميعًا يجمعها سور السِّجن وأسلاكه الحديديّة الشائكة المكهربة، وجُدُرُهُ الإسمنتيّة المسلّحة بقضبان حديديّة ثخينة، وأبواب زنازينه الفولاذيّة، وسجّانوه ومحقّقوه ذوو القلوب المترعة حقدًا ومقتًا على كلّ مَنْ سواهم.

المتوكّل طه في "أبوابه المنسيّة" يفضح بعض ما عاناه ويعانيه المعتقلون السياسيّون في السّجون الإسرائيليّة؛ فهو يتحدّث عن حياة عاشها هو، ويعيشها حتّى الآن عشرات الآلاف من السّجناء السياسيّين الفلسطينيّين. وهل يتصور عقل أن يبقى معتقل قرابة ثمانين يومًا في التّحقيق المركزيّ دون اغتسال أو حتّى شطف يدين. (ص 133).

كتب المتوكّل قصصه بلغة أدبيّة فصيحة، وخيال مجنِّح يعرج إلى عنان السّماء، إلى درجة أن يَخْطِبَ معتقل جنيّة من أبيها وأشقّائها الّذين حضروا إلى السّجن ليلاً، ولم يتمكّن أحد من رؤيتهم سوى العريس الّذي اشترط عليهم أن لا تحمل منه ما دام في السّجن. فوافقت ووافقوا. (ص 119).

محمد موسى سويلم:

حين قرأت العنوان "الأبواب المنسية" تبادر إلى ذهني أنني سأقرأ عن تلك الأبواب في القرى المهجرة، والتي تركها أصحابها الشرعيون وأغلقوها وحملوا المفاتيح، على أمل أنهم سيعودون قريبًا، ومنهم من قال ساعات... أيام...مدة قصيرة، ولم يكن في حسبان أحد أن المدة ستطول كل هذه المدة، فظلت المفاتيح وليست الأبواب.

وحين تصفحت الكتاب بشكل سريع، ورأيت هذا الكم من الرسومات، ضحكت وقلت: ماذا حصل؟ ألم يبق شيئًا أمام المتوكل طه إلا أن يعرض رسومات، ويبدأ بتحليلها ودراستها وكتابة رأيه؟ أو ماذا قرأ في هذه الصور؟ فقلت في نفسي اقرأ يا ولد و شوف، وما هي إلا قصة واحدة أو اثنتين حتى قلت لعل الكاتب أراد أن يكتب مجموعة من مواضيع الإنشاء لطلبة الثانوية العامة (التوجيهية) إلى أن زالت كل تلك المفاهيم، لأقف أمام قصص قصيرة من رحم المعاناة والألم، مصورة

لأروع أناس عاشوا تجربة السجن وظلم السجان وقهر العدوان، قصص لم تصف ألم التعذيب والحرمان والمهانة للإنسان، بل تصف قوة الإيمان وعمق التحدي وعزيمة الأهل وحسن التكافل والتضامن، سجين يعلم البشرية كيف يكون حب الوطن والقضية؟ وكيف يحترم الإنسان أخاه الإنسان؟

عن الرسومات لا أدري لماذا هذا الكم الهائل منها؟ وإلى ماذا ترمز؟ حبذا لو كتب تحت كل لوحة اسمها كي نحاول ربط اللوحة بالقصة أو بالموضوع المطروح، ثم ألا يكفي مجموعة أقل تفي بالغرض؟ أم أن الكاتب أعطى الرسامة القصص وهي رسمت ما يناسب النص.

كتب عما يجول في النفس سواء كانت تلك النفس هي السجينة أم السجانة أم أهل السجين أو من لهم علاقة بهذا، الاعتقالات وطرقها وأساليبها.. أوقاتها.. واقع معيش.. لحظات من الهمّ.. والغمّ.. الفرح.. كل تناقضات الحياة دون تمييز بين حركة وحركة، أو فصيل وفصيل. لقد جمع الكل في واحد.

كتاب جيّد عالج الكاتب فيه بأسلوب فلسفي نفسي الكثير من ملامح وواقع الأسرى المعتقلين وسجانيهم، والظروف التي أدت للوصول إلى تلك النتيجة، ثم عن العزيمة والصبر والمثابرة والإيمان والتضحية التي تكتنز في صدور المعتقلين، كل هذا والكثير الكثير... يعري الكاتب كل

الأساليب المتبعة في إدانة السجين، وأن التهم متوفرة وجاهزة، وما على الحاكم سوى إلباس المتهم التهمة على المقاس، ولا مانع لو كانت واسعة أو ضيقة، وفي النهاية ماذا بعد؟

إبراهيم جوهر:

المستويات الفنية في "الأبواب المنسية"

تذكّر "البواب المنسية" للمتوكل طه بالنتاج الأدبي الذي يأخذ من القضية المعالجة وهجًا آسِرًا يثير العواطف أكثر مما يستثير العقل، ويبعد محاكمة النص المنتج فنيًّا في سبيل التركيز على المستوى الواقعي للمسألة المطروحة. من هنا فإن المتلقي يؤخذ بروح النصوص ويعيش أجواءها، وهي تدور في ساحة المعتقل، وتحاور السجّان، وتحلم مع السجين. ولعل في هذا المستوى من القراءة ما فيه من روح التضامن والتأثر والانسجام والتماهي مع قضية وطنية ذات أبعاد إنسانية مؤلمة و(منسية) في الوقت نفسه. وهي قراءة طيبة النوايا، ولكن النوايا وحدها لا تكفي لعمل فني يعبر عن قضية وطنية وإنسانية ذات مستويات سياسية واجتماعية وفنية يجب التعاطي معها وتناولها بعيدًا عن الشعارات والخطب الإنشائية.

إن قضية بحجم قضية الأسرى الدامية المنسية، تقتضي تناولها بعقل وإبداع ومسؤولية فنية، ربما لم يعد مقبولاً اعتلاء موجتها والنطق باسمها

اليوم لكثرة الكلام الذي لم يحرر معتقلاً من أبنائها. ولتكن كتاباتنا معبرة عنها بقدر بسيط من حميمتها وروائها. قداسة القضية وعظمتها وجماهيريتها لا تشفع لأي نتاج دون المستوى الفني اللائق، وإن حمل اسمها، ودافع عنها، وروّج لها.

من هنا كانت صرخة محمود درويش الاستباقية في أوائل السبعينيات: "ارحمونا من هذا الحب القاسي"، صرخة مؤسّسة واعية واعدة راسمة أفقًا إبداعيًّا يطلب محاكمة النص وفقًا لشروطه الفنية، لا موضوعه المعبر عنه. كانت الصرخة تحمل طلبًا واعيًا مفاده: قيّمونا وفق مضمون نصوصنا فنًّا ومضمونًا وإبداعًا وتأريخًا، لا وفق توجّه مسبق يقبل كل غث وسمين، فيخلطهما معًا، ويعاملنا بشفقة وتضامن، ونظرة تشجيع لم نعد نقبلها لأننا ناضجون.

قضية الأسرى وما يحيط بها، وكل هذا الشجن الذي تثيره قضية إنسانية بالدرجة الأولى، ووطنية بالمستوى نفسه، لا يجب أن تعقد أيّ اتفاقات بعيدًا عن حلها حلاً نهائيًّا، لأن القائد لا يترك جنوده في الغابة بينما يقول اتفقنا.

أن نبدع أدبًا في سيمفونية (أدب السجون) يعني أن نضيف جديدًا، وأن نعلي رسالة التحدي، وأن نقرع الجرس في الإطار الفني، فلا مجال

لحيرة الفن وتردده ونكوصه في ميدان السهر والتعب والمعاناة والصمود. باختصار: نريد إبداعًا متألقًا يعبر عن قضية إبداعية.

ليس مطلوبًا منا أن نجامل، ولا أن نتحامل أيضًا، وليس مطلوبًا منا أن نضيع في دفء القضية وجاذبيتها، ونغض الطرف عن الهنات الفنية والمستوى الإبداعي النسبي الذي حققته هذه النصوص، التي تجيء بعد مسيرة طويلة من البحث والتأليف للزميل المتوكل. فهذا الكتاب يحمل الرقم 39 في مسيرة الكاتب.

العنوان: قصص، الأبواب المنسية، ثم اسم الكاتب، يليه اسم راسمة اللوحات ريما المزين.

لغة الألوان التي جاءت لتوصل رسالة باللون الذي يوصل رسالة ذات دلالة وإيحاءات ورموز: فاللون الأزرق لكلمة (قصص) ثم اللون الأصفر للعنوان (الأبواب المنسية) ثم اللون الأبيض لاسم الكاتب، فاللون الأصفر ثانية لكلمة (لوحات ريما المزين) على خلفية من اللون السماوي الممزوج بالأخضر، هي لوحة ألوان فنية تحكي مسيرة من الصدام، وفق إطار واضح المعالم يوضحه الرسم التقريبي لباب السجن، وما الأزرق والأصفر ثم الأبيض سوى رموز واضحة الدلالة .فهل عنى المصمم ذلك؟

في صفحة الإهداء جاء إهداء الكاتب "إلى شهداء وأسرى الحرية"، وهو إهداء عام يحمل رسالة واضحة تساوي بين الشهيد والأسير، في حين كان الأصحّ أن يقول: إلى شهداء الحرية وأسراها، فيعطف الأسرى على الشهداء، ويضيف الحرية (لفظًا وضميرًا) إلى الشهداء والأسرى، فيتساوى الشهداء والأسرى في التعريف، وتكون العبارة سليمة من الناحية اللغوية، وهذا خطأ شائع الاستعمال.

تبدأ نصوص الكتاب بنص "طوبى"، وهو نص بليغ جميل معبر مدهش، ما يحقق استهلالاً طيبًّا وموفقًا للولوج إلى ساحة النصوص الثلاثة والستين، التي جاء عددها بعدد سنوات النكبة (المنسية). طوبى: نص بديع أخذ من القصة القصيرة جدًّا اللغة المكثفة، والجملة المركزة، واللفظة الشعرية الموحية ذات الظلال، والأفق المفتوح على التأمل والتأويل. وأخذ لغة الصمت من الورق (أخذوه منها) الجملة الافتتاحية القوية الرشيقة الدالة. تأتي الجملة الافتتاحية في سطر منفرد (أخذوه منها) وفي السطر التالي عودة ارتدادية إلى الماضي، إنارة خلفية لصاحبة الضمير غير المعلن عن اسمها (إنها: ها (منها) من هي؟ إنها هي.. ليكتشف القارئ أنها كل أمّ وكل زوجة فلسطينية صارت شجرة "وراح الناس يتظللون بفيئها، واحتشدت بالأعشاش والزغب والهديل

والزقزقات، وأضحى من يمرّ بها يعتقد أنها شجرة تنبئ بغابة ستمتد، لتنشر المسك والشهد والزنجبيل" (ص12).

شكلت هذه المقدمة (فاترينة) جاذبة للولوج إلى عالم النصوص التي جاء على الغلاف أنها (قصص)، ليكون النص الثاني المعنون بـ"طلق نعنع" نصًّا غير داعم للنص الذي سبقه من الناحية الفنية، إذ هبط هبوطًا مدويًّا صارخًا.

إنه نص يمثل البدايات لأيّ كاتب، نص تنفيسي ذاتي يحمل ذكرى ما لتجربة ما، خلطت بين الخاص والعام بلغة مباشرة رتيبة، أفسدها تدخل الكاتب المباشر، وخلطه بين لغة الوصف والذكريات والتعليق والخبر: "... والآن ها هو يتمدد على سريره، يكاد يلفظ آخر رمق من روحه، وإدارة المعتقل ترفض الإفراج عنه. لقد التهمه السرطان!" (ص13). يتضح أسلوب نقل الخبر بلغة باردة إخبارية غير فنية، تريد نقل المشهد بأكمله. وفي السطر التالي يقول: "واستشهد صاحب الكوبّاي، فوددنا أن نودعه قبل أن يأخذوه، فانكببنا على وجهه نقبّله، ونغسله بدموعنا الباردة ! لاحظ السجان أن صاحبنا يغمض كفه ويقبضها على شيء ما! فحاول أن يفتحها فمنعناه، وهدّدناه، فطلب منا أن نفتحها خوف أن نكون قد هرّبنا معه شيئًا!". هنا يتضح الأسلوب الحكائي الإخباري غير الفني، فلا اللغة لغة قصّ فني، ولا الحدث معبّر عنه بأسلوب فني قصصي بلغة

ذات رشاقة. إنها لغة عاجزة تقف على الجانب الموازي للغة النص الأول "طوبى".

هذان مستويان متباينان في اللغة والقص الفني إذًا، وهما يمتدان ليطالا عددًا من النصوص المتبقية، في الوقت الذي ينهض عدد ليس قليلاً من نصوص أخرى جمع بين الأسلوبين، فكان وسطًا بين البلاغة والسموّ، والهبوط اللغوي التعبيري.

تنتمي نصوص: "ساحر"، "ابنتنا الشّامة"، "صهيل في العتمة"، "اللبلابة"، وغيرها، إلى هذا المستوى المتوسط (بين.. بين). وتنتمي نصوص: "طلق نعنع"، "اعتقال ناظم الغزالي"، "العقرب"، "تقمص"، "لم تنته الجلسة"، إلى المستوى الهابط فنيًّا في لغة التعبير، ونقل الموقف المتدفق، واللغة المترهلة الزائدة عن الحاجة الفنية، وفي التعليق والتشبيه غير الموفق.

ثلاثة مستويات فنية هي نصوص الأبواب المنسية للمتوكل طه. وهو الكاتب الذي يستطيع الكتابة المعبرة التي أقصدها، لكنه تسرّع في النشر، ولم يتأن في وقت مطلوب منه فيه أن يقدّم جديدًا فنيًّا يسمو فوق ما وصل إليه من قبل.

محمد عليان:

وأخيرًا وجدت ضالتي

(من وحي ما وراء "الأبواب المنسية")

صديقي المتوكل

هي لحظات قصيرة، عدت فيها إلى الماضي البعيد القريب، ليس طوعًا إنما رغمًا عني. حملتني صفحات كتابك بقصصها وخواطرها ورسوماتها، وألقت بي في الرّملة، لتنقلني بعد ذلك إلى كفار يونا وبئر السبع ونفحة وعسقلان، ويا لدهشتي! اكتشفت أنني لا أزال أعيش تلك الأيام، لم أتحرر من أسرها رغم مرور عقدين من الزمن على الإفراج عني. في سجن الرملة التقيت المحقق الذي يأبى الاعتراف بإنسانيته، وفي عسقلان تفيأت ظلال الشجرة اليتيمة الوحيدة التي يرعاها الأسرى بالماء، وإن لم يتوفر فبالدموع، وفي نفحة، يا للهول! ارتجفت أوصالي من عقارب وعناكب الصحراء، وفي بئر السبع يا صديقي ألقيت برأسي على الوسادة، وسمعت أهات وأنين العشرات من الذين عاشوا ظلمًا تجربة "باسم الثورة خشّ الدورة".

وفي هذه الصفحات، لا بل اللحظات التي عدت فيها إلى الماضي، جعلت مني إنسانًا بعد أن كنت (سوبرمانَ) لا يعرف إلا القوة والصمود والشجاعة، لا يبكي ولا يحزن فهو البطل الأنموذج، ولا يجوز أن يكون

غير ذلك، وإلا تحطمت صورته أمام الآخر الذي يعمل على كسر عزيمته وتحطيم عوامل صموده. نعم يا صديقي، في هذه اللحظات جعلت مني إنسانًا قد يبكي، يتوجع ويتأوه، يحزن ويفرح، يحب ويعشق ويحلم بحبيبته، ويحن إلى أمّه، ويغني شوقًا لابنته، ويخاف من عقرب الصحراء، ويرتجف من هراوة السجان، وينكمش في برشه تحسبًا لغدر السجناء المدنيين والعصافير، وقد يدفن رأسه تحت البطانية النتنة، ليبكي ويذرف الدموع الحبيسة.

سنوات طويلة عشتها هناك، ولكن يا صديقي، لم أكن أجرؤ على البكاء، وحرمت خلال عشرة سنوات من أن أقول "أخ". وضعوا الأنبوب في مؤخرتي، ثم في فمي، ثم في أنفي ليسكبوا دلوًا من الملح في معدتي ولم أصرخ ألمًا. جلدوني بالسياط، وانهالوا عليّ بالعصي والهراوات، وأمطروني باللكمات والركلات، ولم أطلب الرحمة أو حتى لم أنحن أو أسقط.

والآن فقط يا صديقي، وبعد أن قرأت ما وراء الأبواب المنسية، وتعمقت في خبايا النفس البشرية، اكتشفت أنني لم أفعل ذلك لأنني بطل، ولم أحبس دموعي لأنني شجاع، ولم أكتم آهاتي لأنني صبور، بل لأنني أخشى من اتهامي لنفسي بالجبن، ولأنني كنت أعتقد أن البطل لا يتوجع ولا يبكي، وقد صنعوا منّي بطلاً، فكيف لي أن أخذلهم وأحطم

صورتي أمامهم؟ وأنا لست أنا، أنا أنت وهو وكل الأسرى الذين أمضوا ربيع عمرهم وراء القضبان، وما زالوا يعيشون واقعًا لا نعرف منه، بل لا يصلنا منه إلا كل ما يدل على الصمود والبطولة والشجاعة، ولم نحاول أن نتعمق قليلاً في معرفة هذا الواقع، لنعرف أيّ أثر تتركه نبتة الشمام في نفوس المحرومين من اللون الأخضر، وأيّ دمعة حرى تنهمر من عين أسير سمع للتو نبأ وفاة عزيز لديه؟ وأيّ حنين يتملك أسيرًا يتذكر زوجته أو حبيبته؟ مشاعر دفينة تتحكم فينا دون أن ندري، وحبسها هناك وراء الأبواب المنسية يزيدنا ألمًا وقهرًا، ويعمق بؤسنا، ويقتل أحلامنا. شكرًا لك يا صديقي لقد حررتنا من مفهوم البطل السوبرمان، وأعدتنا إلى إنسانيتنا، وربما لو قرأت كتابك وأنا هناك لكنت أكثر شجاعة وبطولة، لا بأس.. متأخر جدًّا أفضل من أن لا يكون أبدًا، وها أنا أجد في كتابك ضالتي.

نبيل الجولاني:

كتب المتوكل طه عن الأمّ التي اعتقل المحتلون الإسرائيليون ابنها، فلذة كبدها الذي نزعوه من أضلاعها، وسلخوه من روحها، والتي أصبحت ترابط أمام السجن حتى أضحت شجرة، ترسم لنا لوحة تقول إن فلسطين توازي فلذة الكبد، فهي في الأضلاع والروح، وما مرابطتها

أمام السجن إلا لتتحدى جدران السجن والسجان. تمامًا كالمرابطين حول المسجد الأقصى لحمايته من أطماع المحتلين، لوحة تشكل شجرة ترسم خريطة لطريق فلسطين، وليس خريطة الطريق التي رسمها سياسيو المرحلة.

كتب المتوكل طه عن القابض على الحلم الأخضر، كالقابض على الجمر يخيف السجان في نومه وفي يقظته، وعن خوف السجان من اليد المقبوضة المكبلة، واليد التي ترفع فوق الرأس سواء بسواء.

جسد الحلم حقيقة تصب في جسد الروح والأمل بالشفاء، وعن حالات تجريف الأراضي الزراعية المزروعة بأشتال الشمام التي يصادرها المحتل بعنصريته التي وصلت إلى معاداة التراب، والخوف من كل ما هو تحته وما هو فوقه، والخيول التي صهلت في ساحة النزال، وكيف هُزم المحقق أمام السجين الذي يزغرد على كرسي السؤال، وعن صعود الصمود، والصمود الذي أذهل المحتل، ومواصلة الغناء المرتل وابتهاج الساحة، وعصا الجنرال والكلاب اللاهثة ومدير السجن المختل البائس، وصورة المحبوبة الموشومة على جسده وفي قلبه منذ أن شب على الحياة، وحلمه حين تثور النوافير الملونة، ووصلات ناظم الغزالي والظالمون الذين جاوزوا المدى ونعم سنموت، ولكننا سنقتلع الموت من أرضنا،

وأنا يا أخي آمنت بالشعب المضيع والمكبل، كتب عن شبق السجان وبلاهته وحميريته.

قرأ المتوكل طه موسوعة المعتقلين والمعتقلات، تفاصيل من أنهوا الأحكام، وتفاصيل من لم ينهوا المؤبدات، أعداد النساء والأطفال وأساليب تفتيش الإذلال، وبطولة الشيخ رائد صلاح، وكيف ينوي الصلاة على صوت الأذان في حضرة الحمام الزاجل، الذي كان يوزع المناشير والبيانات قبل الصلاة وبعد الصلاة وفي وقت الصيام.

كتب عن حقيقة الحرير المفرود بفضاء البدر، ووجع يوسف الذي تراءى له وجه السجان.

تحدث عن أساليب التعذيب، وشرح طرق الشبح المختلفة، وعن الفرق المتوحشة فرق المسادا والنحشون ودوور وعن البوسطة، وعن الفدائيين هذه المفردة التي قلّ استعمالها لما دخل من كلمات واصطلاحات مشوهة على حالتنا السياسية الكفاحية المتردية، وكيف يعيش المعتقل غالبًا خارج الزمان والمكان، وكيف أن المعتقل يؤخذ إلى المشافي، وبدلاً من أن ينعم بالشفاء يزداد لديه الوباء.

أجل إنه المحتل يعيث خرابًا في أجسادنا بعد أن خرب أراضينا وجرفها وصادرها، وأفقدها خصوبتها، بعدما قمعنا وشتتنا وغيرنا، ولعب بعقولنا إلى درجة التراجع والتهاون والانهيار في دهاليز التسوية.

أما وبسخرية ساخرة، فإن الذي يتوحد أمام الله فعلاً، لا يختلف أمام الوطن. إنها مسألة الانتماء، فمن يؤمن بالله ينتمي لوطنه بكل إيمان، فالانتماء والإيمان وجهان لعملة واحدة، لأن الحب لا يتجزأ أبدًا إلا إذا كانت الروح مريضة.

والروح المريضة يكون جسدها مشوهًا ومشطورًا ومتشظيًا، فاقدًا لتوازنه العصبي والفكري ما يؤدي به الوضع إلى العصبوية والفئوية والتبعية، واستلاب العقل والقرار، ومن يصادر عقله ويُستلب يفقد الله ويفقد الوطن، ويفقد كيانه ويسبح في التيه، ولا يصل إلى شاطئ الأمان. فالاختلاف لا يؤدي إلى الائتلاف، بل يؤدي إلى إضعاف كل طرف من الأطراف، ومن يضعف يضعف إيمانه وانتماؤه إلى حد الهوان والامتهان، فالحفاظ على كتاب الله يُفضي إلى الحفاظ على تراب الوطن، إنها رابطة جدلية، فينبغي على كل مؤمن أن يكون الكتاب في قلبه الذي يضخ دماءه في شرايين الوطن.

كتب المتوكل طه عن الفلاح الذي لم (يخنس) وأصر على أن (يتقيض) هو وغزالته وأطفاله من أرضه وناره وعسله وسنابله، الأمر الذي أدى إلى أن تبقى جذوة النضال مشتعلة عند كل أبناء شعبنا من جيل الرابعة عشرة يدخلون السجون رجالاً، ويحررون منها رجالاً أبطالاً أساتذة وأشقاء أخوة أكثر أُخوة من الأخوة التي ولدتهم أمهاتهم. إنه العذاب

المقاوم الذي تتجرعه الأسيرات بثبات وتحد وأمل لن ينقطع مهما كانت الظروف، وتبقى مرآة الروح تُمسد الأماني وتهيئها للعيان ولنشوتها.

وعادة ما يهرب الأطفال مع أحلامهم الجميلة التي تصلب عودهم وتفتح أفاق المستقبل، بعد أن يكونوا قد تعلموا كيف يقرعون الخزان.

لقد نقلنا الكاتب إلى لواعج وهواجس النفس البشرية الخاصة خصوصية العام الموضعي بشكل قسري ومخيف وعنيف.

أجل إنه جرس الصباح الذي ينبغي أن يقرع للعاشقين الخالدين حتى يتذكر أهل الأرض تلك الأبواب المنسية.

كتب المتوكل طه عن الواقع الملتبس المرتبك الذي لا علم للناس فيه، وكيف يُحللونه وفق أهوائهم ما يؤدي إلى كوارث من الصعب التغلب عليها.

كتب عن الكذب السري لسلطات الاحتلال، وعن الثمن المخيف الذي يدفعه السجين نتيجة ألاعيب الاحتلال البغيض، وكيف أن النهوض بالروح ينهض بالجسد والذاكرة.

كتب عن بكاء الصغيرة التي تبحث عن أمّها، وعن بكاء الكبير الذي يلوذ إلى عمه خوفًا من الدهر.

وصرخ فينا بأننا نستطيع أن نواصل على الرغم من كل شيء. إنه بهذا يحفر عميقًا ليبني عاليًا. هو الذي يعارض زمن العطش والتراخي، وهو

المعتصم بالحكمة، والذي لا يناله العدو على الرغم من الكاميرات والكلاب.

حدثنا الكاتب عن الديمقراطية والحرية والكرامة الإنسانية، وحقوق الطفل والمرأة والإنسان، وعن الأسرى والأسيرات، الشيوخ منهم والأطفال المحكومين سنوات أو مؤبدات، والمحكومات الصبايا، والمتزوجات الأمّهات، والشهداء والجرحى، وعن طرق التعذيب والمعذبين المقهورين، وعن الهراوات، والكمامات، ومدافع الغاز، وخراطيم الماء، وأعقاب السجائر، وأعقاب البنادق، والقبور التي تشبه الزنازين .

كتب المتوكل عن المواقف داخل السجن، وأن السجين والسجان في معركة شاملة، واشتباك دائم، وتحد دائم، وسباق دائم، لتسديد المواقف على كل ما يدور في حياة السجون من صراع على كل الأشياء دفعة واحدة، إنه يحتاج لموقف معد له إعدادًا جيدًا ومدروسًا، ويجب تنفيذه في كل وقت ومهما كانت الظروف والتحديات والتضحيات، وغالبًا ما يجيء الحدث والرد عليه في آن بغتة كالصاعقة التي تضرب كل شيء في لحظة واحدة، فإمّا أن تهين وتلقن العدو درساً، أو تهون وتهان.

كتب المتوكل طه التجربة التي عاشها وعايشها. التجربة التي رواها والتي رويت له، وكأنها رؤية عن صورته المعلقة بين الجدار والفولاذ. عن

باب الصاج الذي يكثف الرطوبة ويمنع الهواء. عن الجحيم الذي بدأ جحيمه الآن. عن الوحوش الذين يعيشون معنا على الأرض.

أشياء لا يحسها ولا يفهمها إلا من ذاق مرارة السجن وقسوته، والذي تختلج كل هذه الأحاسيس والأفكار في داخله، وأحلام البطولة، وأحلام الواقع، وأحلام الوجع، والتهكم، والغضب تندلع من كل أنحاء جسده، تختلج وتختلط وترتبط وتشتبك، وتنفجر لتفجر الروح والجسد والأفكار والمبادرات والمعجزات، والأساطير والخرافات الواقعية الخاصة بنا نحن الفلسطينيين من دون بني البشر.

إنه الشاعر المتوكل طه الذي عاش تجربة الأسر بكل تفاصيلها، وذاق مرارة وقسوة الاعتقال مرات عديدة، والذي عجن قصصه هذه بماء قلبه وأبجدية القصيد المحمل بمعاني الصمود والتحدي المتعطش للحرية والاستقلال والانتصار في المعركة التي يخوضها الأسرى ونخوضها على كل الجبهات. كان ذلك حين اعتلت سيدة الموقف (فلسطين) دفة الحكاية.

وبعدها جرى نقاش مطول شارك فيه عدد من الحضور:

خالد محاميد أشاد بالكتاب، واقترح ترجمته إلى اللغات أجنبية، كما دعا المثقفين الفلسطينيين إلى البحث عن أسباب تبني العالم بشكل واسع

لقضية الأسير الإسرائيلي جلعاد شاليط، في حين لم ينتبه لآلاف الأسرى الفلسطينيين.

د. إسراء أبو عياش تكلمت عن الجوانب الإنسانية في الحديث عن حياة الأسرى وعن معاناتهم الكبيرة.

ديمة السمان أبدت إعجابها بعنوان الكتاب وباللغة الشاعرية للمؤلف، ونوهت إلى أن بعض النصوص لا تتوافر فيه شروط القصة.

طارق السلايمة استغرب عدم إيراد أسماء الأسرى لتخليدهم وإبراز قضاياهم.

مها دعيس انتقدت الرسومات التي تضمنها الكتاب، واعتبرتها غير تعبيرية عن المحتوى، وفيها تكرار، وقالت إن عدم وضوح الرسومات ربما يعود إلى عدم طباعتها ملونة.

صقر السلايمة أعرب عن اعتزازه بمعرفة المتوكل وإبداعاته.

ممن حضر النقاش: د. سري نسيبة، راتب حمد، لمى ومحمد غوشة، مزين برقان.

شكر المتوكل طه الحضور لمشاركاتهم التي وصفها بالجميلة، ونوه بأنه يحاول التجريب مشيرا إلى كسر الحواجز بين الأصناف الأدبية المتعارف عليها.

(القدس 31/ 3/ 2011)